مُعجزاتُ الماءِ

بدايةً ، إليكم ما دونته كتب الحديث فى ذلك :

١ - عن علقمة عن عبدالله ، قال : كنا نعدّ الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فقلّ الماء ، فقال : «اطلبوا فضلة من ماء» ، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده فى الإناء ، ثمّ قال : حيَّ[١] على الطهور المبارك ، البركة من اللّه ، فقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ . [رواه البخارى والترمذى والنسائى والدارمى] .

٢ - عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما ، قال : عطش الناس يوم الحديبيَّة ، والنبى ﷺ بين يديه ركوة[٢] ، فتوضأ ، فجهش[٣] الناس نحوه ، فقال مالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك . فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور[٤] بين أصابعه كأمثال العيون ، وتوضأنا . قلْتُ : كم كنتم؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة .

[رواه البخارى وأحمد والدارمى]

٣ - عن أبى هريرة . قال : كان أهل الصفَّة أضياف أهل الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ، والله الذى لا إله إلا هو إن كنت لاعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وأشدّ الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذى يخرجون منه ، فمرّ بى أبو بكر ، فسألته عن آية من كتاب الله ، ما أسأله إلا ليشبعنى ، فمرّ ولم يفعل ، ثمّ مرّ بى عمر ، فسألته عن آية من كتاب الله ، ما

---

(١) حيَّ : أقبِلوا .
(٢) الركوة : إناء صغير من جلد يُشْرب فيه الماء .
(٣) جهش الناس نحوه : أقبلوا عليه ، متلهفين على طلب الماء .
(٤) يثور : ينبع بكثرة .

أسأله إلا ليشبعنى، فمرّ ولم يفعل، ثمّ مرّ أبو القاسم ﷺ ، فتبسم حين رآنى وقال: «أبا هريرة». قلْتُ:لبيك يا رسول الله. قال: «الحق». ومضى، فاتبعته، ودخلْتُ منزله، فاستأذنْتُ، فأذن لى، فوجد قدحاً من لبن، فقال: «من أين هذا اللبن لكم؟» قيل: أهداه لنا فلان. فقال رسول الله ﷺ «يا أبا هريرة» قلْتُ: لبيك. فقال: «الحق بأهل الصفّه.. فادْعُهم». وهم أضياف الإسلام، لا يأوون عند أهل ولا مال، إذا أتتْهُ صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتتْه هدية أرسل إليهم، فأصاب منها، وأشركهم فيها، فساءنى ذلك، وقلت: ما هذا القدح بين أهل الصفَّة وأنا رسوله إليهم؟ فسيأمرنى أنْ أديره عليهم، فما عسى أن يصيبنى منه، وقد كنْتُ أرجو أن يصيبنى منه ما يغنينى، ولم يكن بُدٌّ من طاعة الله وطاعة رسوله، فأتيتُهم، فدعوتُهم. فلما دخلوا عليه، وأخذوا مجالسهم، قالﷺ: «يا أبا هريرة»، خذ القدح؛ واعطهم، فأخذْتُ القدح، فجعلت أناوله الرجل، فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يردّه، فأناوله الآخر حتى انتهيت به إلى رسول اللهﷺ، وقد روى القوم كلهم، فأخذ رسول الله ﷺ القدح، فوضعه بين يديه، ثم رفع رأسه، فتبسّم، فقال: «أبا هريرة، اشرب»، فشربْتُ، ثم قال: «اشرب». فلم أذل أشرب، ويقول «أشرب»، حتى قلْتُ: والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، فأخذ القدح فحمد الله ثم شرب. [رواه مسلم].

٤ - وفى حديث إياس بن سلمة عن أبيه، والذى أوردناه فى باب معجزة الطعام، كان فيه فقال نبى الله ﷺ: «فهل من وضوء»؟ فقال رجل بأداوة له فيها نطفة، فأفرغها فى قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقةً أربع عشرة مائة، ثم جاء بعد ذلك ثمانية، فقالوا: هل من طهور؟ فقال رسول اللهﷺ: «فرغ الوضوء».
[رواه مسلم]

إن الأحاديث المذكورة آنفاً تجعل للماء شأناً غير ما هو معهود فى الأوضاع الطبيعيَّة، فالماء القليل الذى لا يكاد يكفى رجلاً واحداً، يتدفّق من بين أصابع رسول الله ﷺ؛ ليكفى ألفاً وأربعمائة رجلاً، يصبّونه صبّاً، وهم لا يخشون نفادَه.

فمن أين تدفّق ذلك الماء؟

إن هذه المعجزة التى أجراها جل شأنه على يدى رسول الله ﷺ نجد لها شبيهاً مع موسى عليه السلام:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[الأعراف:١٦٠].

إذ طلب منه قومه ماءً يشربونه فى مكان لا أثر فيه للماء، فضرب موسى عليه السلام الحجر بعصاه، فتفجّرت منه اثنتا عشرة عيناً، فشربوا منه وارتووا.

وقد ذكر لنا جل شأنه هذه المعجزة فى كتابه الكريم، وهو بصدد إخبارنا عن أحوال الأمم السابقة مع أنبيائها، لا لأنها أخطر شأناً من معجزات رسول الله ﷺ فمعجزة موسى عليه السلام قد يُقال فيها إن الماء الذى تفجّر من الحجر، ما هو إلا ماء مخزون فى باطن الأرض، خرج من هذا الموضع بأمر من الله تعالى.

أما لدى محمد ﷺ فالأمر أكثر جلالاً وإعجازاً؛ لأنّ الماء لم ينبع من باطن الأرض، إنما نبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، التى كانت فى الركوة، ولم تكن على الأرض.

فمن أين جاء الماء؟

١ - النيل والفرات:

ورد فى حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله ﷺ رأى فى السماء السابعة سدرة المنتهى، ورأى فى أصلها منابع أربعة أنهار، اثنان منها هما النيل والفرات. فكيف يكون منبع هذين النهرين فى السماء، ونحن نراهما يجريان أمام أعيننا على هذه الأرض؟

كنا قد ناقشنا فى كتاب الإسراء والمعراج العلاقة الوجوديّة بين السماوات والأرض، فقلنا إنه لا انفصال بينهما؛ لأنهما كون واحد، وما عجزنا عن الوقوف على ملكوت السماوات إلا لهيمنة القوانين الأرضيّة على الطبيعة

البشريّة، مما جعل إدراكها محصوراً فيما تقع عليه الحواس الخمس. ولنا فى معجزات رسول الله ﷺ شاهداً على ذلك ، وهو ما ذُكِر فى حديث قصعة الثريد عندما سأل عنها الرجل: هل كنت تمدّ بالطعام؟ فردّ عليه راوى الحديث قائلاً: أمّا من الأرض فلا، إلا أن تكون كانت تمدّ من السماء.

وكنا قد أشرنا إلى ذلك بقولنا: إن الثريد له هيئتان.

الأولى : المقدار الذى كان يراه القوم فى القصعة.

والثانية : المدد الذى كان ينضاف إليها بعيداً عن القدرات الإدراكيَّة للإنسان، والدليل عليه هو أن العشرات أكلوا منه بدون أن يطرأ النقصان على الكم المشهود فى القصعة.

وكذلك كان الماء: نطفة قليلة تكفى ألفاً وخمسمائة ، ولم يكن الأمر سحراً، بل كان حقيقة وواقعاً . مع أنه فى نظر العين والعقل والواقع لا يكفى رجلاً واحداً، ولم يقف الأمر عند مجرّد الاستهلاك من الماء بدون أن يطرأ عليه النقصان، إنما تحدّى ذلك إلى أن فار الماء من بين أصابعه ﷺ على نفس الهيئة التى ينبع فيها الماء من باطن الأرض. ولكن الماء لم ينبع من الأرض؛ لأنّ يد رسول الله ﷺ كانت فى الركوة. من أين جاء الماء؟

٢ - من رسول الله ﷺ :

أ - النيل والفرات ينبعان من سدرة المنتهى، وها نحن نرى امتدادهما على هذه الأرض، وكأن الأرض متّصلة بسدرة المنتهى؛ حتى يتسنّى للماء أن ينطلق من السدرة إلى الأرض.

ب- وموسى عليه السلام ضرب الحجر بعصاه، فخرج الماء من جوف الأرض، ولا ندرى إن كان ذلك الماء من السماء، أم أنَّه الماء المخزون فى الأرض.

جـ- وفى الحديبية التى لم يبق فى بئرها ماء، مجّ رسول الله ﷺ من فمه ماء قليلاً فيها، فدرَّت بالماء.

ولاندرى إن كان ذلك الماء من السماء، أم أنّه الماء المخزون فى الأرض، تلقّى أمراً من رب العالمين بأن يخرجه من ذلك الموضع؛ كرامة لرسول الله ﷺ.

د - أما أن ينبع الماء من بين أصابع رسول الله، فأمر يختلف عمّا ذكر؛ لأننا لا نستطيع القول أن ذلك الماء ما هو إلا الماء المخزون فى الأرض؛ لأن أصابع رسول الله كانت فى الركوة، وليست على الأرض.

فليس لنا فى ظل هذه الحالة إلا أن نقول: إن الماء كان من السماء، لامن الأرض، وكانت أصابع رسول الله ﷺ المعبر الذى مرّ من خلال ذلك الماء، وكأنه ﷺ متخلل فى الوجود، والوجود متخلل فيه، ليس وجود الأرض فقط، بل ووجود السماوات.

فمثلما كانت الأرض هى المعبر الذى مرّ من خلاله الماء من السماء إلى الأرض. كما فى النيل والفرات، كذلك كان جسد رسول الله ﷺ إشارة إلى قدره العظيم، ومقامه الكريم.

أما قدح اللبن فله شأنٌ آخر؛ لأنّه لم تمسَّه أصابع رسول الله، لذلك كانت الإرادة الإلهيّة هى الّتى حقّقتْ ذلك؛ استجابة لرغبة رسول اللّه ﷺ، فكان شأن قدح اللبن كشأن قصعة الثريد.

وحاولوا أن تتصوّروا معى الحالة:

قدح صغير فيه شيء من اللبن قد لا يكفى إلا رجلاً واحداً أو رجلين، وعندما أمر رسول الله ﷺ أبا هريرة أن يدعو أهل الصفّة جميعاً، تحسَّر على ما قد يفوته من ذلك اللبن، الذى توحى هيئته بأنه لن يكفى إلا رجلاً أو رجلين، فكيف بأهل الصفّة جميعاً؟!

وجاء أهل الصفة، وشرب كلٌّ منهم من ذلك القدح حتى ارتوى، وشرب أبو هريرة إلى أن ارتوى، فمن أين جاء ذلك اللبن؟

قد يكون الأمر متعسّراً على الإدراك البشرى، وهو، بالفعل، كذلك؛ لأن المعجزة تحققت بعيداً عن كل القوانين الممكنة فى حياة الإنسان.

نلاحظ فى نصّ الحديث أن أبا هريرة لم يخبر رسول الله ﷺ بما يعانيه من جوع، ولكن رسول الله كان يعلم بكل شىء، وما كان تبسّمه لأبى هريرة إلا مؤشراً على تلك المعرفة، فدعاه رسول الله إلى بيته، وعندما وجد قدحاً من اللبن، طلب منه أن ينادى أهل الصفّة جميعاً؛ ليشاركوا أبا هريرة فى ذلك اللبن.

وجاء أهل الصفَّة ، وشربوا جميعاً من ذلك اللبن حتى ارتووا. فكيف كان ذلك؟

ليس لنا أن نقول أن اللبن نبع من الأرض؛ لأنه لا يأتى من الأرض، وكذلك لا نستطيع القول بأن رسول الله ﷺ كان المعبر الذى عبرت من خلاله الزيادة فى اللبن؛ لأنه لم يضع يده فيه.

وهكذا لا يبق أمامنا إلا القول بأن الإرادة الإلهيَّة هى التى تدخَّلت، لتكون هذه المعجزة دليلاً على صدق رسول الله وكرامته على ربه، وقد ورد فى بعض ما روى من معجزات رسول الله ﷺ ما يلى:

(.. فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده فى الإناء، ثم قال: حيّ على الطهور المبارك، والبركة من الله..) والبركة تعنى الزيادة ، وهذه الزيادة من الله جل شأنه، وكونها من الله يحرّرها من كل القوانين المادية التى تحكم حياة الإنسان، الذى ليس له أن يدرك الكتلة إلا من خلال قانونى الوزن والحجم، وهذا بالتحديد هو ما كان مع أبى هريرة، الذى أدرك من خلال الحجم أن اللبن لن يكفى أهل الصفَّة جميعاً.

وأما إذا أرادت القدرة الإلهيَّة التدخل، فإن كل تلك القوانين تصبح لاغية؛ لتحلّ محلّها قوانين أخرى ، لا يعلمها إلا الله تعالى. فخرج اللبن فى ذلك القدح عن القوانين التى تحكم طبائع المدركات فى حياة الإنسان، وأراد له جل شأنه أن يكفى أهل الصفة جميعاً، فكفاهم ، بل إن أهل الأرض جميعاً لو أرادوا أن يشربوا منه لكفاهم.

إن الله سبحانه وتعالى، الذى إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، من خلال معايير ومقاييس أخرى قدّرها تقديراً.

ولمزيد من الإيضاح والبيان لهذه المعجزة ولغيرها فى المعجزات التى تأتى مخالفة لقانون الكتلة فى حياة الإنسان ، تأملوا معى ما يحدث فى القنبلة الذريّة التى تحمل كتلة لا تتناسب مع الانتشار الهائل فى حال انفجارها.

فهى قنبلة تعتمد فكرة الانشطار النووى ، أى نواة تكاد أن لا ترى حتى بأكبر المجاهر المكبرة، فإذا انفجرت توالى ذلك الانشطار، ليحدث انتشاراً هائلاً فى الضغط المدمر والإشعاع النووى والغبار الذرى.

من ذلك نفهم أن المعجزة لا تأتى خارجة عن القوانين ، بل تأتى من خلال قوانين أخرى قدّرها جل شأنه، وحجب الإنسان عنها، ولكنه أعطاه بعض المؤشرات عليها، مثلما هو الحال فى الانشطار النووى.

obeikandl.com